ايليا ابو ماضي

بقلم الدكتور جبور عبد النور

لسنا نقصد في كلمتنا هذه تحليلاً جمالياً لشاعرية ابي ماضي او تدويناً لحقبة تعد بحق ، من حيث اصطخاب الحياة فيها وفورانها ، من اخصب العهود انتاجاً في تاريخ ادباء المهجر ، بل في تاريخ الادب العربي الحديث ، وانما تنصرف عنايتنا الى عرض مقتضب لسيرة الشاعر ونتاجه ، يكاد ان يكون موضوعياً في ايجازه وارتباطه باحداث حياته . وفي يقيننا ان هذه العناصر البنائية الاولية مقدمات بدائية ضرورية للدارسين والمحللين الذين يأتون من بعـــد ، فيستنطقون آثاره ، ويستشفون اسرار قلبه ، ويرودون مجاهل خياله ، مستكشفين انغام اوتاره . وقد كان ابو ماضي واحداً من فرسان « الرابطة القلمية » ، وعاملاً فعالاً ، الى جانب جبران ونعيمه ، في الثورة على الرجعيين والوقوفيين ، فجلا لقرائه صفحات زاخرة بالحياة والالوان والرعشات ، وبرز الشعر العربي من محرفه – بعد طول المران – مروّى بندى الابداع ، مغذّى بعناصر الحياة والبقاء .

ولد ايليا ابو ماضي في المحيدثة بالقرب من بكفيا سنة ١٨٨٩ . وما وعى الا القليل من جمال موطنه – والطبيعة اللبنانية تتجلى في تلك البقعة في أقصى روعتها وتأنقها – بل قضت عليه ملابسات الحياة بهجر لبنان الى مصر وهو في الحادية عشرة من عمره بعد ان اطلع على مبادىء طفيفة من العربية ، التقطها من المدرسة القروية التي تردد عليها ، ومن استاذه ملحم قزاح بنوع خاص ، ولا يزال ذكر المعلم عالقاً بمخيلة الشاعر الى الآن يثير في نفسه عالم الطفولة الزاخر بالاحلام والرؤى .

دعاه خاله ، وكان صاحب متجر في القاهرة ، لمساعدته في عمله ، فنشط الى جانبه مدة عشر سنوات معنياً بضبط حساباته ، وتصريف شؤون تجارته ، وهو في زحمة اشغاله لا يتحول عن الدرس والتنقيب ، بل يكب بصبر واناة على المصنفات اللغوية يطالعها ، ويحل رموزها ، ويستوعب قواعدها ، ويستظهر العبارات المنتقاة ، والشعر الفصيح القديم والحديث ، مرتقياً الى علوم المعاني والبيان والعروض ، ثم الى معالجة الشعر بتقليد القصائد التي تقع بين يديه في البحر والقافية كعادة جميع المغرزمين في اطوارهم الاولى. وفتحت هذه الثقافة الشخصية امامه آفاقاً جديدة في حلبات الادب والفكر والسياسة. وكان الادباء في ذلك الحين يحسون احساسا عميقا بالرسالة التي يؤدونها في البلاد العربية المتوثبة للنهوض . فشاركهم الفتى الناشيء شعورهم ، وتمرس بمسؤوليتهم ، وتردد على حلقاتهم يخوض معهم في احاديث الاصلاح والانقلاب ، مفيداً من هذه البيئات توجيهاً جديداً وآراء حديثة انطبعت في ذهنه ، فبدت آثارها الخيرة في المقبل من نتاجه . وكان جو مصر الذي احتواه مدة عشر سنوات مليئاً بالمتناقضات والمفارقات . ينعم فيه المفكرون بحرية مطلقة في هدم السلطنة العثمانية ، وبث الدعوة العربية ، وتكم افواههم اذا طالبوا باستقلال بلادهم ، وتحررهم من السيطرة البريطانية . وأول ما أذيع للشاعر قصيدة اجتماعية تتحدث بلسان فتاة عقد اهلها قرانها بالرغم منها نشرتها جريدة «الاكسبرس» الاسبوعية ، ومطلعها :

لي بعل ظنه الناس ابي   صدقوني انـه غير أبي

ومنها : إنما الغصن إذا هب الهوا   مال للاغصان لا للحطب

ويبدو من الذكريات التي انطبعت في ذهن الشاعر عن هـذا الطور من حياته ورددها على مسامع المعجبين به عند نزوله لبنان عام ١٩٤٨ ان هذه القصيدة كانت فاتحة شهرته في عالم الشعر ، انتقل بعدها الى فنون الوطنيات والسياسيات التي راجت سوقها آنذاك ، وحركت النفوس الى المطالبة بالحرية والمساواة . شارك في كل نشاط قومي ، وبنوع خاص في استقبال محمد فريد العائد من اوربة ، وفي الحفلة التذكارية التي اقيمت لمصطفى كامل ، وبذلك أثار عليه نقمة السلطة المصرية وغضب الانكليز ، فقرر السفر الى أميركة عام ١٩١١ . ولكنه عرج في طريقه على لبنان لتوديع الاهل وقضاء أشهر الصيف . وفي الايام القليلة التي أمضاها في موطنه تكشفت له وجوه من الحياة الجبلية ما أدركها في عهد طفولته . فاذا بالعداوات الصغيرة تفرق بين أبناء القرى ، وتنمي روح التنافس بين الاسر والافراد ، وتثير كوامن الاحقاد وتستنفد قوى الناس في توافه الامور . وقد احتفظ بهذه الانطباعات بعد مرور ست وثلاثين سنة على وقوعها . ومن طريفها انـه حاول مع رفاق له تمثيل رواية في بكفيا ، فسعت فئة من الخصوم الى ثنيهم عن رغبتهم ، وعرقلة عملهم . وكان قد نظم قصيدة لتلقى في تلك المناسبة ، وعندما قرأها على الدكتور اسعد عفيش – وهو من هواة الشعر ومتذوقي الأدب الرفيع – طلب منه حذف الأبيات التي تسيء الى الخصوم ، غير ان الشيخ ابراهيم المنذر قال له « اقرأ القصيدة ثم شمر واركض » . وانتهى الامر بان اقيم المسرح على سطح فرن ، وجلس المتفرجون أمامه ، ووقف حول الساحة والد الشاعر وبعض الاصدقاء حراساً لمنع المعارضين من تهديم المسرح او احراقه. وألقى أبياته فقوبلت بالاستحسان. وضاق الفتى ذرعاً بأهل القرية ، فكان يفر منهم الى الحقول مصطحباً بندقية صغيرة وزوادة مؤلفة من الجبن والزيتون والتين المطبوخ ليصطاد العصافير . وفي الحقول وجد أمامه متسعاً من الوقت لينظم الشعر ، يكتبه حيناً ويرتجله أحياناً . والناس يشكون في مقدرته ويقولون ان ابياته من صنيع شاعر مصري ، لانه لم يدخل مدرسة عالية . ولكن الشيخ المنذر كان يستمع الى ما تولده قريحته ، ويشجعه على المثابرة والاجتهاد ، فيطمئن الفتى الى رأي الشيخ ، ويجد في تقريظه له خير حافز على الانتاج .

***

غادر لبنان في أواخر صيف عام ١٩١١ ، وفي باله الانصراف التام الى الشؤون التجارية بعد أن تقدمه أخوه الى الولايات المتحدة وأسس له متجراً ناجحاً . وعزم على تطليق الأدب الذي لم يثمر له إلا العداوة ، ولم يجن منه

فلسا واحداً . ولكن الشعر عاد الى مراودته في مهجره بلسان اصحاب الصحف والمجلات ، فلبى رجاءهم ، وبدأ يتحفهم من وقت إلى آخر بمقطوعات من شعره ، تحمل اليهم أطياب الطبيعة في لبنان وأشواك السياسة فيه ، بدأها بالقصيدة التي ودع بها موطنه وجعل مطلعها :

وحكومة ما ان تزحزح أحمقا عن رأسها حتى تولي أحمقا

وتابع جهده في الحقلين الادبي والتجاري ، فنال منها نصيبا وافراً ، أمن له مكانة مرموقة في عيون الجالية العربية واللبنانية بنوع خاص ، الى أن اشتد تعلقه بالقلم فودع تجارته وتفرغ للصحافة والشعر . وفي عام ١٩١٦ استقر نهائياً في مدينة نيويورك، وتوثقت علاقته بادباء العربية المشهورين امثال جبران ونعيمة وكاتسفليس وعريضة ، الفرسان الذين أنشأوا «الرابطة القلمية» من بعد . وفي ذلك الحين تزوج من ابنة نجيب دياب صاحب جريدة « مرآة الغرب » ، وعاون حماه في كتابتها ، وأصبح رئيس تحريرها الى ان أسس جريدة «السمير» في عام ١٩٢٩ ، وما يزال يصدرها إلى اليوم .

***

نشر ابو ماضي قصائده في كثير من جرائد الوطن والمهجر امثال « زحلة الفتاة » ، و « السائح » ، و « مرآة الغرب » ، و «السمير»،وفي «مجموعة الرابطة القلمية»،التي صدرت عام ١٩٢١ حاملة خمس قصائد من نتاجه . وطبع الى الآن اربع مجموعات شعرية: الاولى عام ١٩١١ في القاهرة،والثانية في نيويورك عام ١٩١٩ والثالثة في نيويورك ايضاً عام ١٩٢٧ حاملة اسم « الجداول » اخرجتها مطابع «مرآة الغرب » ، والرابعة«الخمائل»،في طبعتين: اميركية رأت النور اثناء الحرب العالمية الثانية ، ولبنانية صدرت في تشرين الثاني عام ١٩٤٨ ، اخرجتها مكتبة صادر البيروتية ، وصادف ظهورها زيارة الشاعر مسقط رأسه . وبين هذه المجموعات تفاوت عظيم من حيث الاسلوب والمعاني والفنون والالوان والاخيلة . ويتجلى الاختلاف باوضح صوره بين الاولى والرابعة فكأنهما من صنع اديبين ينتميان الى عصرين متباعدين . ولا شك ان شاعرية ايليا ابي ماضي بدأت تبرز بجلاء في « الجداول » ، لتكتمل وتتألق في « الخمائل » ، واما الديوانان الاول والثاني فهما محاولتان فاشلتان في بعض القصائد، ناجحتان في البعض الآخر . ولا يتيسر ، بأي حال من الاحوال ، الحكم على صاحبهما حكما نهائياً بالاعتماد عليهما . وقد اختفت هاتان المجموعتان من السوق الكتبية ، ولا اثر لهما في بعض المكتبات العامة ، كأن يداً سحرية سعت في طمرهما ومواراتهما عن عيون الدارسين . وفي تحليل الاثرين الاخيرين كفاية لرسم صورة واضحة للشاعر في حسناته وسيئاته ، وقوته وضعفه ، وهما ابنان صريحان له « لا يتهرب منهما ، ومن نسبهما اليه ، بل يعتز بهما بحق كما يعتز والد بولدين حبيبين . ومما تجدر الاشارة اليه ان المجموعة الثانية قدم لها النابغة جبران خليل جبران بفصل طريف في التعريف بالشعر والشاعر ، قال فيه عن صاحب الديوان : « .. وايليا أبو ماضي شاعر ، وفي ديوانه هذا سلالم بين المنظور ، وحبال تربط مظاهر الحياة بخفاياها ، وكؤوس مملوءة بتلك الخمرة التي ان لم ترشفها تظل ظمآن حتى تمل الالهة البشر فتغمرهم ثانية بالطوفان » .

*

اما ديوان الجداول [1] فقد لاقى منذ صدوره كثيراً من الاستحسان . اكب عليه الفتيان في مختلف الاقطار العربية ترديداً وحفظاً ، وعرض له بعض النقاد بالدرس مفندين ما فيه من مواطن الضعف ، عارضين ما يحويه من متع فنية تغرق القارىء في عالم مسحور. واجمع الكل على انه يحتوي خطرات رفيعة من الادب العالمي ، وعلى ان في صدر صاحبه معدناً ثميناً لو ثابر على صقله لكان اقرب الشعراء الى الكمال .

لا شك في ان الدكتور طه حسين كان اشد النقاد عنفاً في درس « الجداول »، تناوله في « حديث الاربعاء » تناولاً عنيفاً قاصراً همه على تتبع الاخطاء والهفوات ، مشيراً الى ما فيه من الحسنات في بعض المقاطع وكأن هذه خطوط نور ضئيل ناشزة في بحر من الظلمات. غير ان المآخذ التي اشار اليها هي جد هامة، يحار في تأويلها كثير من المعجبين بالشاعر . وذلك ان الناقد حكم على لغة الشاعر بالرداءة ، او انها تقارب الرداءة احياناً حتى توشك ان توغل فيها ايغالاً ، ويأسف كل الأسف لهذا الوهن في الصياغة «لان الشاعر مجيد حقاً ، خصب الذهن، نافذ البصيرة، ذكي القلب ، متقن الفهم لما يريد ان يقول ، موفق الى اجادة التصوير لما يجب ان يصور ، فكان خليقاً ان تؤاتيه مع هذه الخلال نغمة صافية عذبة تعينه على اظهار ما في شعره من قوة وروعة وجمال ليس الى الشك فيها من سبيل [2] ».

وخلاصة المآخذ التي يقررها الناقد :

١ — التورط في المعاني الفاسدة التي لاتستقيم لاستحالتها .

٢ — فقدان الحاسة الموسيقية في اوزانه وقوافيه .

٣ — الوقوع في اخطاء نحوية معيبة ، ولا سيما في قصيدته «الاشباح الثلاثة»،عندما يرفع الافعال المضارعة الواقعة في جواب

(١) اعيد طبع هذا الديوان مرتين في النجف سنة ١٩٢٧ ، بعد ان اضيف اليه بعض التعديلات .

(٢) طه حسين ، حديث الاربعاء ، ج ٣ ، ص ٢٢٠ .

الامر ليستقيم الوزن. ومع ذلك فهو يقضي بان الشاعر على هذا كله مصحح لمعانيه ، محقق لها ، يكاد لا يفسدها او يخطىء فيها . وابتكاره في المعاني التي اشتمل عليها هذا الديوان قليل جداً حتى يكاد لا يحس ، ولكن شخصيته قوية ، فهو يتناول المعاني والاغراض التي سبقه اليها الشعراء المتشائمون والمسرفون في الشك من القدماء والمحدثين فينفخ فيها من روحه القوي ، ويكاد يفرض شخصيته فرضاً [1] . وينتهي بابداء اعجابه بالقصيدة التي ختم بها الشاعر مجموعته بعنوان « الطلاسم » ، فيرى انها ابلغ واقوى ما في المجموعة من حيث المعنى .

والواقع ان صاحب « حديث الاربعاء » قد تتبع مواطن الضعف بغريزة مدهشة ، ومر بمطارح الجمال مروراً عابراً ، فرجحت في ميزانه الاولى على الثانية . في حين ان الشاعر قد سار في « الجداول » اشواطاً بعيدة نحو الابداع المعجز . سلس اسلوبه ، ورقت لفظته ، وتهذبت فكرته ، واتضحت بعد غموضها في المجموعتين السابقتين ، وهجر المعلقات المملة ليركز معانيه في مقاطع صغيرة تؤديها على خير وجه ، وتبرزها بأروع ثوب ، وقد اطال نوع الافكار ، وعدد القافية ، وتفنن في الجرس ، وجزأ البحور ، وبسط العبارة ، فاستولت على انتباه القارىء ، ونقلته من عالم انف الى آفاق سحرية . ومرد الامر انه افاد تجديداً وانطلاقاً في جو « الرابطة القلمية » . وكان لمجاورته جبران ونعيمه ورفاقهما أثر بين في الخواطر العميقة التي زخرت بها قصائده ، ولكنه مع هذا لم يستسلم لتيار الصوفية ، ولم يغرق في بحر الرومانطيقية ، وعوالم الحلولية ، وشطحات الانجذاب ، وانما ظل متمسكا ببعض مبادئه الاساسية ، لا يسرف في ذرف الدموع ، ولا يتلاشى في وحدة الوجود ، ولا ينتهي الى ذلك الايثار الذي يدفعه الى إفناء نفسه في سبيل اي كائن آخر ، ولا يقف من الانسانية موقف « النبي » الذي يكشف حجب المستقبل ، او يعتنق اسلوب التوراة ، ويستقي من ينبوعها ، فيقرر حقائق وعقائد ، ويضع نظماً للسلوك والاخلاق . وانما ظل في الجداول ، وفي خضم الآراء التي تدراستها الرابطة ، مؤمناً بواقعية الحياة التي يحياها على الارض ، متردداً بين الايمان والكفر بالعالم الثاني ، شاكاً في كل ما انتهى اليه الناس من نتائج ، ملقياً في كل آن ، وفي كل سبيل ، اسئلة محيرة تعصف بالعقل وتوهن قواه ، وتبدي له عجزه عن ادراك الاسباب البعيدة لكثير من قضايا الحياة . لهذا لم يكن جبران ونعيمه ، على الرغم من الوشائج الفنية التي ربطتهما بالشاعر ، واعتناق الثلاثة مذهباً واحداً في ضرورة التجديد والقضاء على الاساليب اللفظية والمعنوية المتحجرة المتوارثة ، ينظران اليه نظرهما الى رفيق مؤمن بمحصلهما الفلسفي ، وانجذابهما الماورائي . ومما لا شك فيه ايضاً ان حرية المعتقد كانت شرطاً اساسياً في الرابطة ، لا ضغط ولا اكراه ، وانما هناك احترام متبادل ومناقشة حرة تنكشف في النهاية عن تعيين المواقف وتحديد المعتقدات الفردية المتباينة. نجد اثر هذا الانطلاق الفني والفكري في المقدمتين اللتين صاغهما جبران ونعيمه للديوان الثاني وللجداول . وفي الاخير يقول نعيمه : « .. ولا يندر ان اجد لذة حتى في قصيدة لا تأتلف مع اهوائي ومنازعي ، كقصيدة « بردى يا سحب » ، لاني ، وان كنت انكر على نفسي ان تقول :

كل نجم لا اهتداء به   لا ابالي لاح او غربا

لا انكره على ابي ماضي ، بل اعجب بقوة بيانه لمعتقده اذا كان ذلك ما يعتقده » .

والثابت ان ايليا ابا ماضي من عالم ، وجبران من عالم آخر . الاول خليط من التشاؤم والتفاؤل ، شاك لا يؤمن الا بوحي عقله . والثاني ، وان تعالت من بعض مقاطعه غمغمات السوداوية والشك ، وغلبت الظلال القاتمة على الواحه الفنية ، يضع الحلول للقضايا النفسية واللاهوتية والطبيعية ويستدل بهدى روحه المجنحة الى تأويل كل مظهر من مظاهر الكون . في مدرسة جبران سيول

(١) طه حسين ، حديث الاربعاء ص ٢٤٣ .

مراجع لدراسة ايليا ابي ماضي :

★ المقتطف : عدد يونيو ١٩٢٩ ، مجلد ٧٥ ، ص ١١٠ وما بعدها .
★ درس عن «الجداول» في المقتطف: مجلد ٧١ ، نوفمبر ١٩٢٧ ، صفحة ٣٤٥ وما بعدها ، وفي الهلال: مجلد ٣٦ ، نوفمبر ١٩٢٧ ، ص ١١٩ .
★ طه حسين: حديث الاربعاء ، ج ٣ ، ص ٢٢٠-٢٢٧ ، القاهرة دار المعارف .
★ نجدة فتحي صفوة : ايليا ابوماضي والحركة الأدبية في المهجر ، بغداد ١٩٤٥ (مقدمة بقلم روفائيل بطي) .
★ أحاديث أدلى بها الشاعر الي بعض الصحفيين بمناسبة زيارته لبنان لحضور مؤتمر الاونيسكو :« المكشوف» عدد ٤٥٠ ، ١٧ تشرين الثاني ١٩٤٨ ، «التلغراف» عدد الاثنين في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٨)
★ مقدمات الدواوين .

Leaders in contemporary Arabic Literature, by Tahir Khemiri and professor Dr.D. Kampffmeyer London 1930.

من الدموع تذرف اعتباطاً وارتجالاً ، في حين ان شاعرنا يحبس عبراته ويثور على النواحين في لبنان وغير لبنان ويرى كلاً منهم خنساء ولا صخر ، وكلاً أرميا ولا اورشليم.. حتى صار الصباح لا يطلع الا وحواشيه مبللة بالدموع ، وصار الليل لا ينسدل الا لكي تتجاوب في آفاقه اصوات النادبين . فلا نطالع قصيدة او منظومة إلا وقفنا على الدموع الحرى في صدورها واعجازها..ويعلق صاحب «السمير» في احدى مقالاته النثرية على هذه الحالة التي آل اليها الشعر العربي عامة واللبناني خاصة ، فيقول : « هذا شاعر يأمر قلبه ان يتفرق شظايا لأنها أعرضت عنه ... من هي ؟ لا أحد يعلم ... ولا الشاكي نفسه يعلم . ولكنه سمع غيره ينوح فناح ، وامتدح بعضهم من بكاء امرىء القيس في الأطلال ، ونواح موسيه في لياليه فاستخرط في البكاء . وهذا آخر يرفع عقيرته بأنه كاره للحياة ، ماقت للوجود ، ناقم على الأرض والسماء . فاذا قرأته ساورك الجزع عليه ، وأشفقت ان يكون كتب قصيدته وانتحر ، ولكنك لا تلبث ان تقرأ له غيرها ، وغيرها ، وكلها من هذا النمط [1] » .

تشاؤمه في « الجداول » تشاؤم معتدل . مصدره مايشاهده من شقاء الفضائل ، ونعيم الرذائل ، وهذا التفاوت في المقامات بين الناس، القائم على أسس فاسدة ، وهذا القدر الذي يسوق للمرء غير ما يستحقه ، فيشقيه ويعذبه ويذيقه ضروب الحرمان، وهذا الانسان الذي تكبله الرغبات بقيودها ، فيشتهي منها القصي المستحيل حتى اذا بلغه كرهه وقلاه ، وهذا الكذب المرتدي ثياب الصدق والصداقة ، والقبح المتخفي في حلل الجمال . يدفعه هذا التشاؤم الى أثرة هدّامة ، والى احتجاز الملذات لنفسه ، والاستهانة بالناس أجمعين كالطفل الذي يقبض بكلتا يديه على كل ما يقع في متناوله ، ليتفرد به دون الآخرين . وترشح نفسه بهذه المعاني في قصيدته « برّدي يا سحب » ، حيث يقول :

كل نجم لا اهتداء به   لا أبالي لاح أو غربا
كل نهر لا ارتواء به   لا أبالي سال او نضبا
اسقني الصهباء ان حضرت   ثمّ صف لي الكأس والحببا
ليس يرويني مقالك لي   انها العقبان منسكبا

ولكنه لا يطيل المكث في هذه الدائرة الضيقة ، ولا يتركز نظره في هذه العيوب البشرية ، وانما ينتقل الى آفاق أرحب ، فيشاهد ألواناً فاتنة من النفوس ، وصوراً رائعة من الجمال ، ويرى ان الأخذ والأثرة والانكماش ليست ناموساً راسخاً في النفوس ، وانما هناك من يحس بارفع العواطف وأسماها وأبعدها عن الأنانية ، ومن يفضل العطاء على الأخذ ، ويشاهد الطبيعة التي لا تبخل في التضحية ، تتدفق خيراتها على الانسان ، ثم تتقلص على ذاتها حيناً ليختمر جنينها زمناً ما ، وتعود فتفيض به زهراً وجنىً وعشباً ونوراً ولوناً . فبذل النفس من أسرار الحياة ، ومن الجهل بها البخل بثمارنا لأننا نكون قد تنكرنا لصميم وجودنا ، ومن الحمق ان نقلد التينة التي آلمها ان تورق وتزهر وتثمر وتفيء ، فتكون مصدر خير للطير والانسان ولا تنتفع بما تعطيه ، فآثرت الانكماش على نفسها ، مفصلة ظلها على مقدار حجمها ، موقفة نتاجها في عروقها ، فعندما أقبل الربيع وهي عارية كوتد في الأرض ، اجتثها صاحب البستان ليبعث بها الى النار [1] .

تنطلق نفسه الضاحكة على سجيتها في كثير من قصائده ، حيث يدعو من يحب الى التمتع بالحياة قبل الغروب ، والى التملي من خرير الجداول ، وأريج الأزهار ، والتمتع بمرأى الشهب في الأفلاك قبل ان تغيب هذه المشاهد الرائعة عن عيوننا الترابية :

لتكن حياتك كلها   املاً جميلاً طيبا
ولتملأ الأحلام نفسك في الكهولة والصبى..

يستقبل الحياة بخيرها وشرها ، ويحصرها في الايام التي يعيشها على الأرض . وأما ما وراءها من عالم فهو من حيز الضباب والعماء . فمن العجز ان نضيع ما في يدنا ولا نتمتع به الى أقصى حد ، وألا نتذوّق ثمرات الجمال والخير ، وألا نملأ قلوبنا غبطة ونشوة . وأما القضايا الفلسفية التي أقلقت المفكرين والشعراء من اقدم العصور ، فانه يسوقها في « الطلاسم » مقفياً عليها بعبارة : « لست أدري » ، كأننا به يعهد الى سواه بامر تحليلها وتمحيصها ، واكتشاف اسبابها ومسبباتها ، وجلاء غامضها ، كقضية مصدر الحياة ، وحرية الانسان ، وسر الموت [2] . فله ان ينعم بما يتيسر له من افاويق العيش ، وعلى الحكماء ان

---

(١) السمير ، عدد اول تشرين الثاني ، سنة ١٩٣١ ، ص ٦٢٦-٦٢٩ .

(١) راجع قصيدة « التينة الحمقاء » ، الجداول ، ص ٢٨ .

(٢) يرى في رغبة الانسان في البقاء برهانا على كونه غير واثق من الخلود . يجاهد للبقاء بالكتابة والتصوير والنحت والموسيقى والفنون الاخرى لان صوتاً خفياً يهيب به دائماً انه للزوال والتلاشي .

يفنوا ايامهم في حل طلاسمه .

والخلاصة ان الشاعر الذي نطالعه في « الجداول » يختلف عن الذي نقرأه في الديوانين الاول والثاني . صفت ديباجته حتى قاربت الاستقرار ، وانجلت خواطره حتى تركزت في قوالبها الفنية ، واصبح شاعراً انسانياً ، بعد ان تقيد بالتقاليد الشعرية المتوارثة ، وانتهى الى الاعتقاد بان الاديب المطبوع لا يقلد ، بل يخترع ويبتدع ويستقي من منابع الحياة نفسها الهامه . وهكذا تفلّت من اسار الماضي ، في عالم جديدة عامرة بالاخيلة المولدة ، والخواطر الابكار .

*

... ثم استقرت في ذهنه فكرة الفناء بعد الموت ، فلا يؤمن الا بالهنيهات الدنيوية . يرى نفسه اغنية من الاغاني ، قد تطرب لها اذن ، وتمجها اخرى ، وعطراً يلذه انف ، ويكرهه آخر ، او هو اقحوانة تتحول عسلاً اذا امتصتها النحلة ، وتعرى من حسنها وزينتها اذا سطت عليها الديدان . هو غيث كريم اذا صادف حقلاً ازكى فيه العشب والشجر ، واذا نزل الرمال ترشفته الارض اليباب . فيتمنى على قارئه ان يكون الوجه الجميل في هذه التشابيه ، لان ثواني معدودة يعيشها في قلب واع مدرك للجمال هي في نظره خير من الف عام في حياة رتيبة

بهذه الفكرة الجميلة يستهل مجموعة « الخمائل » ، وهي ضمة من القصائد نشرتها الجرائد والمجلات في اوقات مختلفة ، وجمعها وطبعها عام ١٩٤٠ ، ثم اعيد نشرها مرة ثانية في بيروت . تتميز الاولى بالاخراج الأنيق ، والورق النفيس ، غير ان الطبعة البيروتية منقحة ، خلوٌ من الهفوات التي شوهت بعض محاسن الاولى .

نحن واجدون فيها كثيراً من عناصر « الجداول » ، بعد ان أدت بواعث عديدة الى نضجها واختمارها . فالشاعر ما يزال على عقيدته في سمو الفن ، ورفعة رسالته ، يفتتح مجموعته بقصيدة « الشاعر والملك الجائر » التي تتركز فيها فكرة خلود الأدب الحق ، وزوال ما عداه من أعراض الحياة . تمثل في حبكتها الروائية سلطاناً جباراً ينعم باسباب الرفاهية والمجد ، يطلب من شاعر بائس ان يتغنى ببأسه ، ويسهب في تبيان قوته ، وامتداد سطوته ، فتبادر الحقيقة لسان الشاعر فيأبى الاستخذاء له ، فيحتدم الملك غضباً ، ويأمر بقطع رأسه . ثم يدرك الموت صاحب التاج ، فيضم القبر أسمال الشاعر المسكين الى حلل الملك العظيم ، ويتساويان في رقدة العدم الأبدية . غير ان ذكر الفنان يظل خالداً على مدى الأجيال ، وتطوي الأيام سيرة العاتي الجبار . وفي هذه القصيدة براعة وخلق يسترعيان الانتباه ويتمثلان في تنويع القوافي والأوزان والاهتداء الى الكلم الموسيقية ، بحيث تبدو في مجملها سنفونية متعددة الأنغام .

في « الخمائل » ظاهرة لا نجدها في « الجداول » ، وهي سوق الشاعر قصائد مناسبات عديدة الى جانب المبتكر[1] . وهذا لون من الشعر كان قد أهمله إهمالاً تاماً في المجموعة السابقة ، فعاد اليه هنا وأسرف فيه إسرافاً كبيراً . ولعل الباعث على احتفاظه بهذه المقاطع التقليدية انها تحوي ، بالاضافة الى الاطراء والتفجع ، نصيباً وافراً من الابداع الشعري والمعاني المولدة . ولهذا أسف ان تضيع فأبقاها في مجموعته الجديدة . وفيها ظاهرة ثانية جديدة هي انبعاث الحنين الوطني في قلبه ، فقد عاد الى التلفت الى الوراء عبر البحار ، واستيقظت نفسه الهاجعة على ذكريات حارة توحي اليه قصائد من عيون نتاجه . وتململت لبنانيته ناقلة اليه في أعوام الهرم العطر الذي ما نشقه منذ ثلاثين عاماً ، والأنوار والألوان التي ما مرّغ بها عينيه . عصف الوجد بهذا الوتر الجديد فتغنى بروعة لبنان في امسيات صيفه ، وفي ثلوج شتائه ، وفي قبته المرصعة بالنجوم ، وفي صباياه الضاحكات المرجات في الحقول . فهو في خيال الشاعر النعيم الذي وعد به المتقون ، وهو ارض الميعاد التي يحلم بالعودة اليها بعد طول المطاف :

وطني ستبقى الارض عندي كلها   حتى اعود اليك ارض التيه

وتجد النزعتان الفينيقية والعربية اثراً لهما في قصيدتي « شبح » و « فلسطين » ، كأنه قد عاد يتحسس ، رغم طول الغياب ، العواطف التي تثير الجماعات اللبنانية المعاصرة . وفي « الخمائل » ترسخ اراؤه الفلسفية وتتفتّق بعد ان تبرعمت في المجموعة السابقة . وينثر علامات الاستفهام شمالاً ويميناً دون ان يردّ جواباً ، وينتهي الى نوع من الاستقرار السلبي يتلخص بان مهزلة الحياة آخرتها ككل المهازل : ستار يسدل على فصلها الاخير ، فتترك دوياً في الاذان ، واشباحاً في العيون ، ثم تتلاشى شيئاً فشيئاً الى ان يخمد العدم اصداءها .

جبور عبد النور

---

(١) امثال القصيدة التي ألقاها في المأدبة التكريمية على شرف المندوب البطريركي المطران تيودوسيوس ابو رجيلي في بروكلن ، والقصيدة المنظومة في حفلة تكريم سامي الشوا ، والقصيدة التي ألقاها بمناسبة الحفلة التذكارية لموسى الحسيني ، والقصيدة التي رثى بها عبدالله البستاني ، والقصيدة التي تغنى بها في مهرجان أقامته لجنة مستشفى تل شيحا في مدينة دترويت الخ ...